بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قلوبٌ بين يدي القدر

سِيَرُ العشرة المبشرين بالجنة

أبو بكر — عمر — عثمان — علي — طلحة — الزبير
سعد — سعيد — عبد الرحمن بن عوف — أبو عبيدة

من صدقٍ لا يعرف التردد، إلى عدلٍ لا يعرف المحاباة

السيرة الكاملة — بالآيات والأحاديث

مقدمة

۞ ۞ ۞

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله الذي هدى قلوباً كانت في ظلمة الجاهلية فأصبحت بنوره منارات، والصلاة والسلام على مَن كان سبب هذا التحول كله، وعلى آله وصحبه الذين حملوا هذا النور من بعده فأضاءوا به الدنيا شرقاً وغرباً.

أكتب هذه السطور وفي القلب خشيةٌ صادقة لا أدّعي معها علماً ولا أزعم فيها فضلاً؛ فكيف يجرؤ قلمٌ ضعيف أن يقترب من سِيَر رجالٍ زكّاهم الله، وشهد لهم نبيّه صلى الله عليه وسلم بالجنة وهم أحياء يمشون بين الناس؟ إن الحديث عنهم أمانةٌ ثقيلة، وكل حرفٍ يُكتب في حقهم يحتاج إلى ميزانٍ من الصدق والدقة لا يحتمل الزلل ولا التزيّد. فإن وُفّقتُ إلى شيءٍ من الصواب فذلك من فضل الله وحده، وإن كان فيها تقصيرٌ أو خطأ فمن نفسي والشيطان، وأستغفر الله منه، وأسأل كل قارئٍ عالم أن يصحح ما زلّ فيه القلم برفق.

ولستُ هنا لأروي تاريخاً جافاً تُحفظ فيه التواريخ وتُعدّ فيه المعارك، بل لأقترب، بقدر ما يسمح به الأدب من هذه الحرمة، من قلوب هؤلاء الرجال العشرة، لأسأل السؤال الذي يشغلني منذ بدأت هذا العمل: كيف تتحول نفسٌ بشرية من القسوة إلى الرحمة؟ كيف يتحول الخوف إلى يقين، والتردد إلى ثبات، والغنى إلى زهد، والسلطة إلى أمانة تُقلق صاحبها بدل أن تُريحه؟

وعنوان الكتاب، 'قلوبٌ بين يدي القدر'، ليس مجرد عبارةٍ أدبية، بل خلاصة التأمل في هذه السِّيَر العشر: أن هؤلاء الرجال، على عظمة ما بلغوه، ظلوا بشراً تتقلب قلوبهم كما تتقلب قلوب سائر الناس، يخافون ويرجون، ويترددون ثم يثبتون. لم تكن عظمتهم في أنهم وُلدوا معصومين من الضعف الإنساني، بل في أنهم، حين وقفوا أمام لحظة الاختيار الحاسمة، اختاروا الله على كل شيءٍ آخر.

وقد جعلتُ لكل صحابيٍّ في هذا الكتاب خمسة فصولٍ على نسقٍ واحد، ليجد القارئ فيها الطريق الكامل لكل حياة: النسب والنشأة ثم قصة الهداية والإسلام ثم المواقف الخالدة ثم روايته للحديث ثم وفاته. وأثبتُّ في المواضع المناسبة ما يُضيء الحدث من الآيات والأحاديث، رجاء أن يخرج القارئ وقد ازداد قرباً من القرآن والسنة اللذين صنعا هؤلاء الرجال.

أسأل الله أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه، نافعاً لمن قرأه، شفيعاً لا وبالاً على كاتبه يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلبٍ سليم، وأن يحشرنا مع هؤلاء الأخيار، فالمرء مع من أحب، والله من وراء القصد.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

۞ ۞ ۞



الباب الأول

أبو بكر الصدّيق

أول مَن آمن بلا تردد، وأول خليفةٍ حمى الدين من الانهيار



الفصل الأول

النسب والنشأة

۞ ۞ ۞

◆ ١. النسب

هو عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة، من قريش، ويلتقي نسبه بنسب النبي صلى الله عليه وسلم في مرة بن كعب. وأبوه عثمان، المعروف بأبي قحافة، أسلم يوم فتح مكة، وأمه سلمى بنت صخر، وتُكنى أم الخير، وقد أسلمت قديماً. وُلد بعد عام الفيل بنحو ثلاث سنين، فكان أصغر من النبي صلى الله عليه وسلم بسنتين وبضعة أشهر.

◆ ٢. النشأة والصدق المبكر

نشأ أبو بكر في مكة في بيتٍ كريم النسب، من بطنٍ وسطٍ في قريش لكنه الأعلى بين بطونها في شرف الخُلق. وقبل أن ينزل عليه وحيٌ يأمره بشيء، اشتهر بصفةٍ نادرة في مجتمعٍ تحكمه العصبية والغلبة: الصدق المطلق الذي لا يعرف المواربة، حتى صار اسمه عند قومه مقروناً بالثقة. لم يُعرف عنه أنه سجد لصنمٍ قط بحسب بعض الروايات، ولم يشرب خمراً في جاهليته، وكان محبباً إلى الناس لسهولة خُلقه ودماثة معشره.

وكان تاجراً موسراً، خبيراً بأنساب العرب وأخبارها، حتى كان يُقصد لهذا العلم كما يُقصد أهل الفتوى لفتواهم. فجمع بين نجاح التجارة وسعة العلم بالأنساب ورقة الخُلق، فصار شخصية مرموقة في قومه قبل الإسلام بزمنٍ طويل؛ فحين جاءته الدعوة لم يكن رجلاً مغموراً يبحث عن مكانة، بل رجلاً ذا وزنٍ حقيقي يخاطر بكل ذلك في سبيل يقينٍ لا يملك عليه دليلاً حسّياً سوى معرفته بصاحبه.

◆ ٣. الصداقة التي سبقت الرسالة

لم تكن علاقة أبي بكر بمحمد صلى الله عليه وسلم علاقة طارئة بدأت مع الدعوة، بل صداقةً عميقة سبقت النبوة بسنين طويلة، يلتقيان في مجالس قريش وأسواقها، ويعرف كل منهما صاحبه معرفة القلب لا معرفة الظاهر فقط. وهذه المعرفة المتراكمة هي ما يُفسّر أعجب مشهدٍ في تاريخ الدعوة: أن يُصدّق رجلٌ صاحبه في أعظم دعوى عرفها التاريخ دون أن يطلب دليلاً واحداً.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾

سورة التوبة، الآية ١١٩ — وقد كان أبو بكر إمام الصادقين.

الفصل الثاني

قصة الهداية والإسلام

۞ ۞ ۞

◆ ١. 'لم تكن له كبوة'

حين عرض النبي صلى الله عليه وسلم الإسلام على أبي بكر لم يتردد لحظة، ولم يطلب مهلةً للتفكير كما فعل كثيرون، بل قَبِل الدعوة على الفور. قال النبي صلى الله عليه وسلم عنه: 'ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة، إلا أبا بكر، ما عكم عنه حين ذكرته له'. وهذه السرعة ليست سذاجة، بل ثمرة رجلٍ عاش حياته يبحث عن الصدق، فلما وجده مجسّداً في صديقه لم يتردد في اتّباعه.

◆ ٢. صانع الإيمان في قلوب الآخرين

لم يكتفِ أبو بكر بإيمانه الشخصي، بل تحوّل فور إسلامه إلى أعظم داعية في أيام الدعوة الأولى؛ فعلى يديه أسلم عددٌ من كبار الصحابة الذين عُرفوا بالعشرة المبشرين بالجنة: عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف. وهذا الأثر المضاعف ثمرة صدقٍ مُقنع وقلبٍ محبوب.

◆ ٣. مال يُنفَق في سبيل الحرية

حين اشتد أذى قريش على ضعفاء المسلمين ومماليكهم، كان أبو بكر ينفق ماله في شراء مَن يُعذِّب منهم وعتقهم. ومن أشهرهم بلال بن رباح الذي كان يُلقى على الرمضاء ويقول وسط عذابه: أحدٌ أحد، فاشتراه أبو بكر وأعتقه لله وحده.

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ﴾

سورة الليل، الآيات ١٧-٢٠ — نزلت، بحسب ما روي، في أبي بكر.

الفصل الثالث

مواقف خالدة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم

۞ ۞ ۞

◆ ١. رفيق الغار: 'إن الله معنا'

حين تآمرت قريش على قتل النبي صلى الله عليه وسلم وأُذن له بالهجرة، اختار أبا بكر صاحباً لرحلته الأخطر، فاختبآ في غار ثور ثلاثة أيام. ولما وقف المشركون على فم الغار، خاف أبو بكر لا على نفسه بل على صاحبه، وقال: 'يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا'، فأجابه صلى الله عليه وسلم: 'يا أبا بكر، ما ظنّك باثنين الله ثالثهما؟'.

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾

سورة التوبة، الآية ٤٠

وفي الطريق إلى المدينة كان يتقدّم النبي صلى الله عليه وسلم حيناً ويتأخر حيناً، فلما سأله قال: 'أذكر الطلب فأكون خلفك، وأذكر الرصد فأكون أمامك'. وحين وصلا إلى الغار دخله أولاً ليتفقده بيده من الهوام.

◆ ٢. تصديق الإسراء والمعراج: لقب الصدّيق

حين أخبر النبي صلى الله عليه وسلم قريشاً بأنه أُسري به إلى بيت المقدس وعُرج به إلى السماء في ليلةٍ واحدة، ضجّت مكة بالتكذيب، وارتد بعض من أسلم حديثاً. فجاء بعضهم إلى أبي بكر يظنون أنهم سيهزّون يقينه، فقال: 'إن كان قال ذلك فقد صدق... إني لأصدّقه فيما هو أبعد من ذلك: أصدّقه بخبر السماء في غدوةٍ أو روحة'. فسُمّي من يومها 'الصدّيق'.

عن النبي صلى الله عليه وسلم:

'لو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام ومودته'

متفق عليه

◆ ٣. في الغزوات والإنفاق

شهد أبو بكر بدراً وسائر الغزوات، وكان في بدر إلى جانب النبي صلى الله عليه وسلم في العريش يحرسه. وفي غزوة تبوك تصدق بماله كله، فسأله النبي صلى الله عليه وسلم: 'ما أبقيت لأهلك؟'، فأجاب: 'أبقيت لهم الله ورسوله'.

◆ ٤. جيش أسامة بعد وفاة النبي

قبيل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم جهّز جيشاً بقيادة أسامة بن زيد لغزو الروم، وبعد وفاته ارتدّت قبائل كثيرة، فأشار كبار الصحابة أن يُبقي الجيش لحماية المدينة. لكن أبا بكر رفض، وقال: 'والله لا أحلّ لواءً عقده رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولو أن الطير تخطّفنا والكلاب تُهارشنا حول المدينة'.

◆ ٥. 'لو منعوني عناقاً': حروب الردة

لما ارتدّت قبائل ومنعت أخرى الزكاة وهي تُقرّ بالصلاة، رأى بعض الصحابة أن يُترك هؤلاء، لكن أبا بكر قال: 'والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها'. فقال عمر: 'فما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق'.

◆ ٦. جمع القرآن

بعد استشهاد عددٍ كبير من القرّاء في اليمامة، اقترح عمر جمع القرآن، فتردد أبو بكر: 'كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟'ثم اقتنع بالمصلحة وكلّف زيد بن ثابت بهذه المهمة الجليلة.

◆ ٧. خطبة الخلافة الأولى

وقف في الناس خطيباً بعد البيعة: 'أيها الناس، إني قد وُلّيت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنتُ فأعينوني، وإن أسأتُ فقوّموني... أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم'.

◆ ٨. خدمة العجوز وخوف الحساب

لاحظ عمر أن رجلاً يخرج كل فجرٍ يخدم عجوزاً عمياء مقعدة دون أن يُعرّفها بنفسه، فعلم أنه أبو بكر، فقال: 'ثكلتك أمك يا عمر، ومَن يقوى على ما يقوى عليه أبو بكر؟'. ومع ذلك ظل شديد الخوف من الحساب حتى قال: 'يا ليتني كنت شجرة تُعضد ثم تؤكل ولا أكون بشراً'.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾

سورة المؤمنون، الآية ٦٠

الفصل الرابع

روايته للحديث

۞ ۞ ۞

◆ ١. قلّة الرواية وعِظَم الصحبة

لازم أبو بكر النبي صلى الله عليه وسلم في الحضر والسفر أكثر من غيره، ومع ذلك لم يُكثر من الرواية عنه؛ فقد توفي بعد النبي صلى الله عليه وسلم بنحو سنتين فقط، وانشغل بشؤون الخلافة وحروب الردة، وكان شديد الاحتياط في نقل الحديث. ويُذكر أن له نحو مئةٍ وأربعين حديثاً، وكثيرٌ ممن حدّثوا عنه من كبار الصحابة، كعمر وعثمان وعلي وابن عمر.

◆ ٢. من أشهر ما رواه: صلاة التوبة

روى أبو بكر عن النبي صلى الله عليه وسلم باباً عظيماً من أبواب الرحمة، يفتح للعاصي طريق العودة:

عن النبي صلى الله عليه وسلم:

'ما من رجلٍ يذنب ذنباً، ثم يقوم فيتطهر، ثم يصلي، ثم يستغفر الله، إلا غفر الله له'

رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه، وحسّنه الترمذي

◆ ٣. حديث تغيير المنكر

وخطب أبو بكر يوماً فبيّن أن الآية ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ لا تعني ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ثم قال إنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول:

عن النبي صلى الله عليه وسلم:

'إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيّروه، أوشك أن يعمّهم الله بعقابه'

رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه

الفصل الخامس

وفاته

۞ ۞ ۞

◆ ١. الخليفة الذي أراد أن يستمر تاجراً

حين تولى أبو بكر الخلافة خرج في الصباح كعادته إلى السوق يتجر، فقابله عمر وأبو عبيدة وقالا: إن شؤون الخلافة لن تدعك تتفرغ للتجارة، فلا بد أن يُفرض لك رزقٌ من بيت المال. ولما احتُضر استدعى عائشة وأمرها أن تُحصي ما أخذه من بيت المال، فوجدته أقل مما يكفي، فأمر أن تُردّ أرضٌ وخادمٌ كانا له إلى بيت المال تطهراً من كل درهمٍ لم يكن يستحقه بيقين.

◆ ٢. آخر وصية

حين اشتد به المرض استشار كبار الصحابة في استخلاف عمر، وكتب عهده بيده، وقال: 'اللهم إني أردت بذلك خيرهم لهم، ولم آلُهم نُصحاً'.

◆ ٣. الرحيل

توفي أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه في جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة للهجرة، وهو ابن ثلاثٍ وستين سنة، بعد نحو سنتين وأشهر من خلافته، ودُفن إلى جانب النبي صلى الله عليه وسلم في حجرة عائشة، فكان أقرب الناس إلى صاحبه في الحياة وفي مثواه الأخير.

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾

سورة الفجر، الآيات ٢٧-٣٠

«ما راجعت أبا بكر في أمرٍ فوجدته إلا وقد سبقني إليه بخيرٍ منه» — من كلام عمر بن الخطاب في صاحبه.

۞ ﴿ ۞

بهذا يُختم الباب الأول، لينتقل القارئ إلى سيرة صاحبه في الخلافة والعدل: عمر بن الخطاب رضي الله عنهما.



الباب الثاني

عمر الفاروق

من جاهليةٍ قاسية، إلى فاروقٍ عادل، إلى شهادةٍ في المحراب



الفصل الأول

النسب والنشأة

۞ ۞ ۞

◆ ١. النسب

هو عمر بن الخطاب بن نُفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب، من بني عدي، أحد بطون قريش التي تولت السفارة في الجاهلية، ويلتقي نسبه بنسب النبي صلى الله عليه وسلم في كعب بن لؤي. وأمه حنتمة بنت هاشم من بني مخزوم. وُلد بعد عام الفيل بثلاث عشرة سنة تقريباً.

◆ ٢. النشأة

نشأ عمر تحت يد أبٍ عُرف بالشدة والقسوة، الخطاب بن نُفيل، فكان يُشغّل ابنه في رعي الإبل بمنطقة يقال لها الضجنان. وحين تذكّر عمر ذلك لاحقاً في أوج عزّه خليفةً للمسلمين، كان يقول: 'كنت أرعى إبل الخطاب بالضجنان في مدرعة صوف، وكان فظاً غليظاً يتعبني إن أنا نسيت، ويضربني إن قصّرت ثم أصبحت لا إله غيره بيني وبينه، فسبحان مَن يُغيّر ولا يتغيّر'. وفي هذا الاعتراف مفتاحٌ نفسي لفهم عمر: أن قسوة الأب صنعت في الابن جلداً مبكراً على المشقة، وأن الشدة التي مارسها لاحقاً على نفسه وعلى ولاته كانت اللغة التي أتقنها منذ الصغر.

◆ ٣. مكانته بين قريش

اشتهر عمر بين شباب قريش بالفروسية والمصارعة، وامتهن التجارة، فكانت له رحلاته إلى الشام واليمن. والأهم أنه كان يعرف القراءة والكتابة، وهي مَلَكة نادرة حينها. ولأجل هذا الجمع بين الفصاحة والحزم والمعرفة بالأنساب، كانت قريش تختاره سفيراً لها. وهذا الدور تدريبٌ مبكر، في خدمة الباطل حينها، سينقله عمر لاحقاً كاملاً إلى خدمة الحق، دون أن تتغير طبيعته، بل وجهتها فقط.

◆ ٤. ظلمة لم يمحها إلا الإسلام

من أشد المشاهد إيلاماً في سيرة عمر قبل الإسلام ما رواه هو بنفسه بعد أن أسلم، حين سُئل عن أشد ما فعله في جاهليته، فبكى، وحدّث أنه دفن ابنته وهي حية، وأنها كانت تمسح التراب عن

لحيته دون أن تعلم أنه يحفر لها قبرها. وليست الرواية هنا للتشهير، بل لأنها مفتاح فهم عمق التحول اللاحق: فالرجل الذي بكى وهو خليفة على ذكرى فعلته القديمة هو الذي انصهر قلبه في نار الإيمان حتى صار من أرقّ الناس عند سماع القرآن.

﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾

سورة التكوير، الآيتان ٨-٩

الفصل الثاني

قصة الهداية والإسلام

۞ ۞ ۞

◆ ١. الخصم الأول للدعوة

حين ظهرت الدعوة كان عمر من أشد المتصدين لها، عن يقينٍ خاطئ بأن هذا الدين يهدد نظام قريش الذي نشأ يحميه. آذى مَن أسلم من قومه، ولم يكن يرى في ذلك تناقضاً. وهذه الحدّة نفسها، حين انقلبت لاحقاً، صارت درعاً للمستضعفين بدل أن تكون سوطاً عليهم.

◆ ٢. الرجل قبل اللحظة

خرج عمر ذلك الصباح ومعه سيفه لا ليجادل بل ليقتل. أخبروه أن محمداً وأصحابه مجتمعون في دار عند الصفا، فمضى إليهم بخطى مَن حسم أمره.

◆ ٣. اللحظة التي تنشق فيها النفس على نفسها

سأله رجلٌ من بني زهرة: 'أين تغدو يا عمر؟'، فقال: 'أريد أن أقتل محمداً'. فقال له: 'وكيف تأمن بني هاشم وبني زهرة إن قتلته؟'. فقال عمر: 'ما أراك إلا قد صبأت وتركت دينك'. فقال الرجل: 'أفلا أدلّك على العجب؟ إن أختك وختنك قد صبآ وتركا دينك الذي أنت عليه'. فاتجه إلى بيت أخته فاطمة، فلما دخل وضرب وأدمى ثم رأى الدم على وجهها، حدث ما لم يُخطط له: فتور مفاجئ، كأن يداً غير مرئية أوقفت ذراعه. وفي هذه الرواية المشهورة ضعفٌ في سندها عند بعض أهل العلم، وإن كانت من أشهر ما في كتب السيرة.

ثم طلب أن يقرأ الصحيفة التي فيها آيات من سورة طه، فشعر أن كلاماً لا يشبه كلام البشر يخاطبه هو تحديداً.

﴿طه (١) مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ (٢) إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾

سورة طه، الآيات ١-٣

◆ ٤. من الغضب إلى الاستسلام

مضى إلى دار الأرقم، فأذن له النبي صلى الله عليه وسلم بالدخول، وأخذ بمجامع ثوبه: 'ما جاء بك يا ابن الخطاب؟'. فقال: 'جئت لأشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله'. فكبّر أهل الدار تكبيرة سُمعت في شعاب مكة.

«اللهم أعزّ الإسلام بأحبّ هذين الرجلين إليك: بأبي جهل، أو بعمر بن الخطاب» — فاستجاب الله بعمر.

الفصل الثالث

مواقف خالدة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم

۞ ۞ ۞

◆ ١. الهجرة العلنية

هاجر المسلمون متسللين، إلا عمر. تقلّد سيفه، وانتصب في نادي قريش، وقال: 'من أراد أن تثكله أمه، ويُيتّم ولده، ويُرمّل زوجته، فليلقني وراء هذا الوادي'. لم يخرج أحدٌ خلفه.

◆ ٢. بدر: أول اختبار للولاء المطلق

حين أُسر سبعون من المشركين ببدر، أشار أبو بكر بالفداء رحمةً، ورأى عمر أن يُقتلوا. فلما نزل الوحي مؤيداً الرحمة مع العتاب، بكى النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر، وتراجع عمر بكل تسليم، لأن ولاءه لم يكن لرأيه بل للحق أينما كان.

◆ ٣. أُحد والخندق

في أُحد ثبت عمر وسط فوضى إشاعة مقتل النبي صلى الله عليه وسلم. وفي الخندق عمل بيده لا يكتفي بالإشراف، وحزن أشد الحزن حين فاتته صلاة العصر يوماً من شدة القتال.

◆ ٤. الحديبية

حين قبل النبي صلى الله عليه وسلم شروطاً بدت مجحفة، اعترض عمر: 'ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ فعلامَ نُعطي الدَّنِيّة في ديننا؟'. فأجابه: 'إني رسول الله، ولن يُضيّعني الله أبداً'. وظل عمر بعدها يصوم ويتصدق ويعتق مخافة كلامه ذلك.

◆ ٥. تبوك والحجر الأسود

في تبوك تصدق عمر بنصف ماله ظاناً أنه سيسبق أبا بكر، فلما علم أن أبا بكر تصدق بماله كله، قال :لا أُسابقك إلى شيء أبداً'. وقبّل الحجر الأسود وقال: 'إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يُقبّلك ما قبّلتك'، درسٌ خالد في اتّباع السنة بلا تقديسٍ للأشياء لذاتها.

◆ ٦. يوم وفاة النبي صلى الله عليه وسلم

حين توفي النبي صلى الله عليه وسلم أنكر عمر الخبر بعنف، لكن أبا بكر قال بهدوء: 'من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت'. يقول عمر: 'فعقرت، حتى وقعت إلى الأرض'.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾
سورة آل عمران، الآية ١٤٤

◆ ٧. الخليفة العادل: فتوح وعدل ودواوين

استخلفه أبو بكر بعد أن قال: 'إنما كانت شدته لأني كنت ليّناً، فإذا أفضى إليه الأمر ترك كثيراً مما كان عليه'. وفي عهده سقطت المدائن، وانكسر جيش الروم في اليرموك، وفُتحت الشام ومصر. وحين فُتحت القدس اشترط أهلها ألا يُسلّموها إلا لعمر نفسه، فقدم متواضعاً على بعير يتناوب ركوبه مع خادمه، ورفض استبدال ثوبه المرقّع: 'إن كنا نطلب العزة بغير الإسلام، أذلّنا الله'. وأنشأ الدواوين، وفصل القضاء، وأرّخ بالهجرة بمشورة علي، وأسّس الكوفة والبصرة والفسطاط.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾
سورة النحل، الآية ٩٠

◆ ٨. راعي الرعية

كان يطوف ليلاً متخفياً، فسمع بكاء أطفالٍ من خيمة، فوجد امرأةً تُقلّب حجارةً في قدرٍ فارغ، فحمل كيس دقيقٍ على ظهره، وقال لخادمه: 'أنت تحمل عني وزري يوم القيامة؟'. وكان يُحاسب ولاته بمقارنة أموالهم قبل الولاية وبعدها، وقال: 'لو أن بغلةً عثرت في العراق لخشيت أن يسألني الله عنها: لِمَ لم تُمهّد لها الطريق يا عمر؟'. وفي عام الرمادة حرّم على نفسه اللحم والسمن، وقال: 'وكيف أرثي للرعية إن لم أذق ما يذوقون؟'. ومرّ بشيخٍ كبير من أهل الذمة يتسوّل، فأمر بإسقاط الجزية عنه وقال: 'ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم تركناه عند هرمه'.

الفصل الرابع

روايته للحديث

۞ ۞ ۞

◆ ١. الراوية المتثبّت

روى عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أحاديث كثيرة، ويُذكر أن له نحو خمسمئةٍ وتسعةٍ وثلاثين حديثاً، لكنه كان أشد الصحابة تثبّتاً في الرواية، يطلب البينة حين يشك، حتى صار صنيعه أصلاً من أصول التثبت في علم الحديث، وكان يخشى الإكثار منها لئلا يُخطئ.

◆ ٢. حديث النية: أصل الدين

هو راوي الحديث الذي افتتح به البخاري صحيحه، وعدّه العلماء ثلث العلم:

عن النبي صلى الله عليه وسلم:

'إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه'

متفق عليه، رواه عمر بن الخطاب

◆ ٣. حديث جبريل

وهو كذلك راوي حديث جبريل عليه السلام الطويل، حين جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم في صورة رجلٍ شديد بياض الثياب، فسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم لعمر: 'هذا جبريل أتاكم يعلّمكم دينكم'. رواه مسلم، وهو أصل جامع لأركان الدين.

◆ ٤. ونقله 'لا تُطروني'

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم تحذيره من الغلو في تعظيمه ثم طبّقه على نفسه، فكان يزجر مَن بالغ في مدحه:

عن النبي صلى الله عليه وسلم:

'لا تُطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده، فقولوا: عبد الله ورسوله'

رواه البخاري عن عمر بن الخطاب

الفصل الخامس

وفاته

۞ ۞ ۞

◆ ١. فجرٌ لم يكتمل

في أواخر ذي الحجة من سنة ثلاثٍ وعشرين للهجرة، وقف عمر يؤم المسلمين في صلاة الفجر، فانقضّ عليه أبو لؤلؤة المجوشي بخنجرٍ مسموم ذي حدّين، فطعنه عدة طعنات، إحداها تحت سرّته أنفذت مقتله. سقط عمر، وأول ما فكّر فيه لم يكن نفسه بل استمرار الصلاة: فأشار إلى عبد الرحمن بن عوف أن يتقدم فيُتم بالناس.

◆ ٢. حوارٌ مع الموت

لما عرف أن قاتله عبدٌ أعجمي لا صاحب دينٍ يسجد لله سجدة، قال: 'الحمد لله الذي لم يجعل منيّتي بيد رجلٍ يسجد لله سجدة'. وقال: 'إن أستخلف فقد استخلف من هو خيرٌ مني، أبو بكر، وإن أترك فقد ترك من هو خيرٌ مني، رسول الله صلى الله عليه وسلم'.

◆ ٣. الشورى السداسية

حصر الأمر في ستة نفرٍ من المبشرين بالجنة: عثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وسعد، وعبد الرحمن بن عوف، وانعقد الاختيار على عثمان. وأوصى بالدفن إلى جانب صاحبيه إن أذنت عائشة، وقال لابنه: 'قل: يستأذن عمر بن الخطاب'، ولم يقل 'أمير المؤمنين'.

◆ ٤. الرحيل

توفي رضي الله عنه بعد ثلاثة أيام من الطعنة، وهو ابن ثلاثٍ وستين سنة، بعد نحو عشر سنين وستة أشهر من الخلافة، ودُفن إلى جانب النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر.

﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾

سورة الأحزاب، الآية ٢٣

۞ ﴿ ۞

وفي الأبواب القادمة يكمل الكتاب مسيرة الخلافة الراشدة مع ذي النورين عثمان بن عفان، وأبي الحسن علي بن أبي طالب، رضي الله عن الجميع.



الباب الثالث

عثمان بن عفان

ذو النّورين — الحياء الذي هابته الملائكة، والصبر الذي حقن الدماء



الفصل الأول

النسب والنشأة

۞ ۞ ۞

◆ ١. النسب

هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، من قريش، ويلتقي نسبه بنسب النبي صلى الله عليه وسلم في عبد مناف. وأمه أروى بنت كريز، وجدته لأمه أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب، عمة النبي صلى الله عليه وسلم. وُلد بعد عام الفيل بنحو ست سنين.

◆ ٢. النشأة والحياء

نشأ عثمان في بيتٍ من أعرق بيوت قريش نسباً ومالاً، وكان تاجراً موسراً، حسن الوجه، رقيق الخُلق، وقد اشتهر بصفةٍ جعلته يتفرد بين الصحابة: الحياء الشديد الذي بلغ من عمقه أن قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: 'ألا أستحي من رجلٍ تستحي منه الملائكة؟'، وذلك حين دخل عليه وهو كاشفٌ عن ساقه، فلما استأذن عثمان جلس النبي صلى الله عليه وسلم وسوّى ثوبه.

عن النبي صلى الله عليه وسلم:

'ألا أستحي من رجلٍ تستحي منه الملائكة؟'

رواه مسلم

وهذا الحياء لم يكن ضعفاً، بل نقاءً داخلياً وحساسيةً أخلاقية عالية، فرضت على من حوله احتراماً من نوعٍ أرقى من هيبة السيف.

الفصل الثاني

قصة الهداية والإسلام

۞ ۞ ۞

◆ ١. دعوة أبي بكر

أسلم عثمان في وقتٍ مبكر جداً، بعد أن دعاه صديقه أبو بكر الصديق، فلم يتردد كثيراً، فطبيعته الباحثة عن الطهارة والاستقامة كانت مهيأة لقبول دينٍ يدعو إلى مكارم الأخلاق.
ويُروى أن عمّه الحكم بن أبي العاص أوثقه بحبلٍ وقال: أترغب عن ملة آبائك إلى دينٍ محدث؟ والله لا أحلّك حتى تدع ما أنت عليه، فقال عثمان: والله لا أدعه أبداً ولا أفارقه، فلما رأى صلابته تركه.

◆ ٢. الهجرتان

آذته قريش لإسلامه كما آذت غيره رغم مكانته، فهاجر هجرتين: الأولى إلى الحبشة فراراً بدينه ومعه زوجته رقية بنت النبي صلى الله عليه وسلم، والثانية إلى المدينة. وقال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: 'إنهما لأول من هاجر إلى الله بأهله بعد لوط عليه السلام'.

الفصل الثالث

مواقف خالدة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم

۞ ۞ ۞

◆ ١. ذو النورين

تزوج عثمان رقية بنت النبي صلى الله عليه وسلم، فلما توفيت زوّجه أختها أم كلثوم، فصار الصحابي الوحيد الذي جمع الزواج من ابنتَي نبيّ، ولُقّب 'ذا النورين'. وقد تخلّف عن بدر لتمريض رقية بأمر النبي صلى الله عليه وسلم، فضرب له بسهمه وأجره.

◆ ٢. بيعة الرضوان

في الحديبية أرسل النبي صلى الله عليه وسلم عثمان سفيراً إلى مكة فاحتُبس هناك، وشاع أنه قُتل، فدعا الصحابة إلى المبايعة على القتال، وبايع عن عثمان بيده اليمنى وقال: 'هذه يد عثمان'.

﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾

سورة الفتح، الآية ١٨

◆ ٣. جيش العسرة

حين دعا النبي صلى الله عليه وسلم إلى تجهيز جيش تبوك، تصدّق عثمان بثلاثمائة بعيرٍ وألف دينارٍ، حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم: 'ما ضرّ عثمان ما عمل بعد اليوم'.

عن النبي صلى الله عليه وسلم:

'من يجهّز جيش العسرة فله الجنة'، فجهّزه عثمان

رواه البخاري

◆ ٤. بئر رومة

اشترى عثمان بئر رومة من يهودي ووقفها سبيلاً للمسلمين، فكانت أول وقفٍ للماء في الإسلام.

﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾

سورة البقرة، الآية ٢٤٥

◆ ٥. الخليفة: المصحف والأسطول والمسجد

بعد الشورى قَبِل عثمان الأمانة بعد صمتٍ وتأمل، وفي عهده ظهرت اختلافات في القراءة بين الأمصار، فجمع كبار الصحابة وكلّف زيد بن ثابت بنسخ المصحف على حرفٍ واحد، فسُمّي 'المصحف الإمام'. وأذن بأول غزوةٍ بحرية إلى قبرص، فتحققت بشارة النبي صلى الله عليه وسلم لأم حرام. ووسّع المسجد النبوي وبناه بالحجارة المنقوشة وخشب الساج.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾

سورة الحجر، الآية ٩

◆ ٦. الذي يختم القرآن وكثير العتق

عُرف عثمان بشدة تعلقه بالقرآن، حتى قيل إنه كان يختمه في ركعةٍ واحدة في قيام الليل، وكان يقول: 'لو طهرت قلوبنا ما شبعنا من كلام ربنا'. وكان يعتق الرقاب كل يوم جمعة.

الفصل الرابع

روايته للحديث

◆ ١. راوية الوضوء

يُذكر أن لعثمان نحو مئةٍ وستةٍ وأربعين حديثاً، وهو من أبرز الرواة لوصف وضوء النبي صلى الله عليه وسلم، يتوضأ أمام الناس ثم يقول: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم توضأ نحو وضوئي هذا، وقال: 'من توضأ نحو وضوئي هذا ثم صلى ركعتين لا يحدّث فيهما نفسه غفر الله له ما تقدم من ذنبه' متفق عليه.

◆ ٢. حديث القرآن

وهو راوي الحديث الذي يعرفه كل طالب علمٍ بالقرآن، وقد كان عثمان نفسه من أسباب حفظه:

> عن النبي صلى الله عليه وسلم:
> **'خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه'**
> *رواه البخاري عن عثمان بن عفان*

◆ ٣. حديث بناء المسجد

وروى الحديث الذي يوافق عمله في توسعة المسجد النبوي:

> عن النبي صلى الله عليه وسلم:
> **'من بنى مسجداً لله بنى الله له مثله في الجنة'**
> *متفق عليه، رواه عثمان بن عفان*

الفصل الخامس

وفاته

۞ ۞ ۞

◆ ١. اتساعٌ جديد وفتنٌ ناشئة

واصل عثمان توسيع الدولة، لكن مع طول خلافته التي امتدت نحو اثنتي عشرة سنة تغيّرت الأجيال، وبدأت تظهر فتنٌ ودعاياتٌ مغرضة، من أشهر مروّجيها عبد الله بن سبأ، سعت للتفريق بين المسلمين واتهام الخليفة الشيخ بالمحاباة لأقاربه.

◆ ٢ .لا أخلع قميصاً ألبسنيه الله'

تجمّع حول داره جمعٌ من الغوغاء يطالبونه بالتنازل عن الخلافة، فعرض عليه بعض الصحابة أن يقاتل دفاعاً عن نفسه، فرفض حقناً لدماء المسلمين، وقال: 'مَن كفّ يده فهو خيرٌ ممن بسطها'. وقال :لا أخلع قميصاً ألبسنيه الله'. وقد رُوِي أنه قال حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه عهد إليه عهداً فهو صابرٌ عليه.

◆ ٣. الاستشهاد

طال الحصار أياماً حتى انقطع عنه الماء، وتسوّر عليه المحاصرون وهو جالسٌ يقرأ القرآن، فقُتل رضي الله عنه في ذي الحجة سنة خمسٍ وثلاثين للهجرة، وهو في الثمانين من عمره أو يزيد، ودُفن ليلاً في البقيع. ورُوِي أن دمه سال على المصحف عند قوله تعالى:

﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

سورة البقرة، الآية ١٣٧

تنبيهٌ: قصة سقوط دمه على الآية بعينها مشهورةٌ في كتب الوعظ، ولكن إسنادها لا يرتقي إلى درجة الثبوت عند المحققين، وإنما الثابت أنه قُتل مظلوماً صابراً وهو يتلو كتاب الله.

الباب الرابع

علي بن أبي طالب

تربية النبوة، وفروسية الإسلام، وحكمةٌ ختمها السيف

الفصل الأول

النسب والنشأة

۞ ۞ ۞

◆ ١. النسب

هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم، ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم، وهي أول هاشمية ولدت لهاشمي. وُلد قبل البعثة بنحو عشر سنين، فكان من أصغر من أسلم من الصحابة.

◆ ٢. في بيت النبي صلى الله عليه وسلم

حين اشتد الفقر بمكة في عام قحطٍ شديد، وكان أبو طالب كثير العيال قليل ذات اليد، تكفّل النبي صلى الله عليه وسلم بتربية علي في بيته تخفيفاً عن عمّه الذي رباه هو نفسه بعد وفاة والديه، فنشأ الصبي الصغير في كنف الوحي منذ طفولته، يرى بيت النبوة من الداخل، ويتعلم الخُلق قبل أن يتعلم الكلام. ولأجل هذه النشأة الفريدة التي لم تتكرر لغيره، حمل في قلبه محبةً للنبي صلى الله عليه وسلم لم تفتر طوال عمره.

الفصل الثاني

قصة الهداية والإسلام

۞ ۞ ۞

◆ ١. أول الصبيان إسلاماً

حين عرض النبي صلى الله عليه وسلم الإسلام على علي وهو غلامٌ لم يبلغ الحلم، لم يتردد، فكان أول الصبيان إسلاماً على الإطلاق، وقيل إنه أول من أسلم بعد خديجة. وروي أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم وخديجة يصليان فسأل عن ذلك، فعرض عليه النبي صلى الله عليه وسلم الإسلام، فاستمهله حتى يستأذن أباه ثم رأى أنه خُلق قبل أن يستأمر أباه فأسلم.

◆ ٢. إسلامٌ بلا تردد، ثباتٌ بلا انكسار

ولم يكن إسلامه إسلام غلامٍ مقلِّد، بل إسلام قلبٍ نشأ على الصدق. ثبت علي مع النبي صلى الله عليه وسلم في أشد سنوات الدعوة، يشاركه الشِّعب والحصار والأذى، ولم يعرف شكاً ولا ارتياباً، وقد عُرف بصلابة العقيدة وسرعة الاستجابة لأمر الله ورسوله.

الفصل الثالث

مواقف خالدة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم

۞ ۞ ۞

◆ ١. ليلة الفراش

حين أجمعت قريش على قتل النبي صلى الله عليه وسلم في فراشه ليلة الهجرة، نام علي مكانه متوشحاً ببرده، وهو يعلم أن السيوف قد تهوي عليه. وفي الصباح اقتحم المشركون الغرفة فوجدوه بدل النبي صلى الله عليه وسلم، فسألوه عنه فأخبرهم بصدقٍ لا يعرف المراوغة.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾

سورة البقرة، الآية ٢٠٧ — قيل إنها نزلت في علي ليلة الفراش.

◆ ٢. مبارز الإسلام

برز علي فارساً لا يُشقّ له غبار، وقتل عمرو بن عبد وَدّ في مبارزةٍ حاسمة يوم الخندق. وفي خيبر قال النبي صلى الله عليه وسلم: "لأعطينّ الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه"، فأعطاها علياً.

◆ ٣. بيت الزهراء

تزوج علي فاطمة الزهراء بنت النبي صلى الله عليه وسلم، وكان بيتهما من أشد بيوت الصحابة تواضعاً، حتى إن فراشهما كان إهاب كبشٍ، وكان مهرها درعه.

◆ ٤. خليفته على المدينة في تبوك

حين خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى تبوك استخلف علياً على أهله في المدينة، فقال علي: أتخلّفني في الصبيان والنساء؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم:

عن النبي صلى الله عليه وسلم:

"أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي"

متفق عليه

◆ ٥. 'دعوني والتمسوا غيري'

حين قُتل عثمان وأقبل الناس على علي يريدون مبايعته، تردد أياماً، وقال: 'دعوني والتمسوا غيري، فإنا مستقبلون أمراً له وجوهٌ وألوان'، فلما ألحّوا قَبِل مكرهاً لا راغباً، لأنه كان يرى المنصب عبئاً يُحسب له ألف حساب.

◆ ٦. سنوات الفتنة

ورث علي مطالبةً عارمة بالقصاص من قتلة عثمان، طالبته بها عائشة وطلحة والزبير من جهة ومعاوية من جهةٍ أخرى، ورأى أن استقرار الدولة أولاً. فأفضى الخلاف إلى معركة الجمل ثم صفين، التي انتهت بالتحكيم، وتمخض عنه ظهور الخوارج الذين أرسل إليهم ابن عباس يحاورهم قبل أن يقاتلهم في النهروان.

﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾

سورة الحجرات، الآية ٩

◆ ٧. الزهد والعدل في الخلافة

ظل علي على زهده، يرقّع ثوبه بيده، وقال: 'ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه، ومن طعمه بقُرصيه'، وكان يوزّع ما في بيت المال ثم يكنسه ويصلي فيه ركعتين، ويخرج إلى الأسواق ينهى عن الغش. ومن القصص المشهورة أنه خاصم يهودياً في درعٍ أمام القاضي شريح فحكم للخصم لعدم ثبوت البينة.

تنبيهٌ: قصة الدرع هذه، على شهرتها في كتب الرقائق، ضعيفةٌ جداً عند المحققين من أهل الحديث، وإنما أُوردت لشهرتها ومعناها التربوي لا لثبوتها.

الفصل الرابع

روايته للحديث

۞ ۞ ۞

◆ ١. من المكثرين

يُذكر أن لعلي نحو خمسمئةٍ وستةٍ وثمانين حديثاً، وهو من أبرز الصحابة علماً وقضاءً، وقد قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: 'أقضاهم علي'، وكان الخلفاء قبله يستشيرونه، وقال عمر: 'لا أبقاني الله لمعضلةٍ ليس لها أبو الحسن'.

عن النبي صلى الله عليه وسلم:

'أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في أمر الله عمر، وأصدقهم حياءً عثمان، وأقضاهم علي'

رواه الترمذي وابن ماجه

◆ ٢. التحذير من الكذب على النبي

ومن أخطر ما رواه علي حديثٌ يضبط باب الرواية كله:

عن النبي صلى الله عليه وسلم:

'لا تكذبوا عليّ، فإنه من كذب عليّ فليلج النار'

متفق عليه، رواه علي بن أبي طالب

◆ ٣. وصية النبي الأخيرة

وروى علي أن آخر ما تكلم به النبي صلى الله عليه وسلم كان وصيةً بالصلاة وبالضعفاء:

عن النبي صلى الله عليه وسلم:

'الصلاة الصلاة، واتقوا الله فيما ملكت أيمانكم'

رواه أبو داود وابن ماجه

الفصل الخامس

وفاته

۞ ۞ ۞

◆ ١. فجرٌ آخر في محراب الكوفة

كما استُشهد عمر وهو يؤم المصلين في الفجر، استُشهد علي بالطريقة نفسها: ضربه عبد الرحمن بن ملجم، أحد الخوارج الذين انتقموا لقتلى النهروان، بسيفٍ مسموم وهو خارجٌ لصلاة الفجر في مسجد الكوفة، في السابع عشر من رمضان سنة أربعين للهجرة.

◆ ٢. العفو في آخر لحظة

أوصى أبناءه ألا يُمثّلوا بقاتله، وأن يقتصّوا منه ضربةً واحدة فقط: 'إن أعش فأنا أولى بدمي، وإن أمت فاضربوه ضربةً بضربة، ولا تمثّلوا بالرجل'. وأوصى ابنيه: 'أوصيكما بتقوى الله، وألا تبغيا الدنيا وإن بغتكما، ولا تأسفا على شيءٍ زُوي عنكما، وقولا بالحق، واعملا للأجر، وكونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً'.

◆ ٣. الرحيل

توفي رضي الله عنه بعد أيامٍ من الطعنة في الحادي والعشرين من رمضان، وهو ابن ثلاثٍ وستين سنة تقريباً، بعد نحو أربع سنين وتسعة أشهر من الخلافة، ودُفن في الكوفة.

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾

سورة الشورى، الآية ٤٠

خاتمة الخلفاء الراشدين

الأربعة في ميزان التاريخ

حين نضع سير الخلفاء الراشدين الأربعة جنباً إلى جنب، يتجلى أمرٌ عظيم في تدبير الله لهذا الدين: أنه لم يعتمد على نمطٍ واحد من الرجال، بل جمع أربعة طبائع متمايزة ليكمل بعضها بعضاً: أبو بكر برقته التي بنت الثقة، وعمر بصلابته التي حمت الحدود، وعثمان بحيائه وكرمه اللذين وحّدا كلمة الأمة حول كتاب ربها، وعلي بفروسيته وحكمته اللتين صمدتا وسط أعتى الفتن.

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾

سورة الفتح، الآية ٢٩

وتستمر السيرة الآن مع الستة الباقين من العشرة المبشرين بالجنة: طلحة، والزبير، وسعد، وسعيد، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة بن الجراح، رضي الله عنهم أجمعين.



الباب الخامس

طلحة بن عبيد الله

طلحة الخير، طلحة الفياض — الذي وقى النبي بيده يوم أُحد



الفصل الأول

النسب والنشأة

۞ ۞ ۞

◆ ١. النسب

هو طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة، من بني تيم، قبيلة أبي بكر الصديق نفسها، ويلتقي نسبه بنسب النبي صلى الله عليه وسلم في مرة بن كعب. وأمه الصعبة بنت الحضرمي.

◆ ٢. النشأة

نشأ طلحة في مكة تاجراً ناجحاً، وكان من كبار التجار الذين يرحلون إلى الشام في قوافل قريش. وقد جمعته بأبي بكر قرابة القبيلة، وصداقة سبقت الإسلام بسنين، فكان قريباً من نفسه قبل أن يكون قريباً من دينه.

الفصل الثاني

قصة الهداية والإسلام

◆ ١. راهب بصرى

يُروى أن طلحة كان في رحلة تجارية إلى الشام قبيل البعثة، فسأله راهبٌ في سوق بصرى: هل ظهر فيكم رجلٌ يُقال له أحمد؟ فعاد إلى مكة وقلبه مشغولٌ بهذا الخبر، فوجد أبا بكر يدعو الناس سراً، فأسلم على يديه دون تردد.

◆ ٢. الأذى في سبيل العقيدة

لقي طلحة من أذى قريش ما لقيه غيره من المسلمين الأوائل، حتى رُوِي أنه رُبط مع أبي بكر في حبلٍ واحد وعُذّبا معاً فسُمّيا 'القرينين'، ولم يثنه ذلك عن دينه بل ازداد تعلقاً بصحبة النبي صلى الله عليه وسلم.

الفصل الثالث

مواقف خالدة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم

۞ ۞ ۞

◆ ١. يوم أُحد: اليد التي تلقّت السهام

في أُحد، حين انكشف المسلمون عن النبي صلى الله عليه وسلم، كان طلحة من القلة التي ثبتت حوله، يتلقى السهام بيده بدل أن تصل إليه، حتى شُلّت أصابعه وأصابته بضعٌ وثلاثون جراحة، وحمل النبي صلى الله عليه وسلم على ظهره حين أراد الصعود إلى صخرة.

عن النبي صلى الله عليه وسلم:

'من أحبّ أن ينظر إلى رجلٍ يمشي على الأرض وقد قضى نحبه، فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله'

رواه الترمذي بسندٍ حسّنه

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾

سورة الأحزاب، الآية ٢٣ — وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم عن طلحة: 'هذا ممن قضى نحبه'، رواه الترمذي.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم يومئذٍ: 'أوجب طلحة'، أي أوجب لنفسه الجنة بما صنع.

◆ ٢. طلحة الفياض

قدمت له تجارةٌ عظيمة من العراق، فوزّعها بكاملها على فقراء المدينة في يومٍ واحد، حتى قالت زوجته إنها رأت الدراهم مكوّمةً كأنها كثبان الرمل، فما جاء المساء إلا وقد فرّقها كلها. وقيل فيه: 'كان يطعم حتى يجوع، ويلبس أهله حتى يعرى'. فجمع بين فداءٍ بالجسد يوم أُحد، وفداءٍ بالمال في سائر حياته.

الفصل الرابع

روايته للحديث

۞ ۞ ۞

◆ ١. قلّة الرواية

لم يُكثر طلحة من الرواية عن النبي صلى الله عليه وسلم، فهو من الصحابة المقلّين، ويُذكر أن له نحو ثمانيةٍ وثلاثين حديثاً، وقد انشغل بالجهاد والتجارة ثم استُشهد قبل أن يعمّر طويلاً.

◆ ٢. حديث الأعرابي

ومن أشهر ما رواه حديث الأعرابي الذي جاء النبي صلى الله عليه وسلم ثائر الرأس يسأل عن الإسلام، فأخبره بالصلاة والصيام والزكاة، فقال الأعرابي: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص، فقال النبي صلى الله عليه وسلم:

عن النبي صلى الله عليه وسلم:

"أفلح إن صدق" (أو: دخل الجنة إن صدق)

متفق عليه، رواه طلحة بن عبيد الله

الفصل الخامس

وفاته

۞ ۞ ۞

◆ ١. الخروج المتردد

بعد مقتل عثمان خرج طلحة مع عائشة والزبير يطالبون بالقصاص، فيما عُرف بموقعة الجمل بينهم وبين جيش علي، وكان خروجه عن اجتهادٍ لا عن طمعٍ في سلطة.

◆ ٢. سهمٌ لا يُعرف قاصده

أصاب طلحة سهمٌ طائش في رجله وسط المعركة، فنزف حتى مات في جمادى الأولى سنة ست وثلاثين للهجرة، وله نحو ستين سنة، ولم يُعرف يقيناً مَن رماه، وإن رجّحت بعض الروايات أنه كان من طرف مروان بن الحكم مستغلاً فوضى المعركة. وكان علي يقول بعد ذلك مترحماً عليه: 'إني لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير ممن قال الله فيهم: ونزعنا ما في صدورهم من غلٍّ إخواناً'.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾

سورة الحجر، الآية ٤٧

الباب السادس

الزبير بن العوام

حواريّ النبي، وأول من سلّ سيفاً في الإسلام

الفصل الأول

النسب والنشأة

۞ ۞ ۞

◆ ١. النسب

هو الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي، من قريش، وأمه صفية بنت عبد المطلب عمة النبي صلى الله عليه وسلم، وأم المؤمنين خديجة بنت خويلد عمته أيضاً، فهو ابن عمة النبي صلى الله عليه وسلم وابن أخي خديجة رضي الله عنها.

◆ ٢. النشأة

نشأ الزبير يتيماً من أبيه في كنف أمه صفية، التي كانت شديدة الحزم في تربيته، تضربه لتجعل منه فارساً شجاعاً، فنشأ صلب العود، حاضر البديهة لا يهاب الموت. وقد رُوِي أن عمه كان يعذّبه ليرده عن الإسلام فلم يرتد.

الفصل الثاني

قصة الهداية والإسلام

۞ ۞ ۞

◆ ١. إسلامٌ في سنٍّ مبكرة

أسلم الزبير وهو دون الخامسة عشرة من عمره على قول الأكثرين، فكان من أوائل من أسلم، وربما كان من العشرة الأوائل ثم هاجر الهجرتين إلى الحبشة وإلى المدينة.

◆ ٢. أول سيفٍ في سبيل الله

حين شاعت إشاعة كاذبة بمقتل النبي صلى الله عليه وسلم، سلّ الزبير سيفه وخرج يبحث عمن أشاعها، فلقيه النبي صلى الله عليه وسلم فسأله، فأخبره، فدعا له بخير، فكان بذلك أول من سلّ سيفاً في سبيل الإسلام.

الفصل الثالث

مواقف خالدة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم

۞ ۞ ۞

◆ ١. 'حواريّ النبي'

يوم الخندق ندب النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه لاستطلاع خبر بني قريظة، فانتدب الزبير، ثم تكرر الطلب فتكرر منه الإقدام، فقال النبي صلى الله عليه وسلم:

عن النبي صلى الله عليه وسلم:

'إن لكل نبيٍّ حوارياً، وحواريّ الزبير'

رواه البخاري ومسلم

◆ ٢. فارسٌ في كل ميدان

شهد الزبير بدراً وأُحداً والخندق وسائر المشاهد، وكان له يوم بدر عمامةٌ صفراء مشهودة، وفي فتح مصر شارك في اقتحام حصن بابليون المنيع.

◆ ٣. ثروةٌ توزَّع قبل أن تُحصى

جمع الزبير ثروة واسعة، لكنه كان يُقرض الناس بسخاء، وكان يقول لابنه عبد الله عند وفاته: إن عجزت عن شيءٍ من ديني فاستعن عليه بمولاي، فلم يفهم ابنه حتى قال له: يا أبت مَن مولاك؟ قال: الله. وكان الدَّين قد بلغ أكثر من مليوني درهم، فسدّده ابنه كله، لأن الزبير كان يستدين ليُقرض ويحفظ أمانات الناس عنده.

الفصل الرابع

روايته للحديث

۞ ۞ ۞

◆ ١. خشية الرواية

كان الزبير من أقل الصحابة روايةً مع طول صحبته وكثرة ملازمته للنبي صلى الله عليه وسلم، ويُذكر أن له نحو ثمانية وثلاثين حديثاً، وسبب ذلك خشيته من الخطأ في النقل. فقد سأله ابنه عبد الله بن الزبير: ألا تحدّث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يحدّث فلانٌ وفلان؟ فقال:

> عن النبي صلى الله عليه وسلم:
> **'أما إني لم أفارقه، ولكني سمعته يقول: من كذب عليّ فليتبوأ مقعده من النار'**
> *رواه البخاري عن الزبير بن العوام*

◆ ٢. درس الاحتياط

وفي هذه الكلمة من الزبير درسٌ بليغ في الورع العلمي: أن قلة الرواية عند بعض الصحابة لم تكن قلة علم ولا قلة صحبة، بل كانت خوفاً من أن تزلّ اللسان في أمرٍ ثقيل الأمانة.

الفصل الخامس

وفاته

۞ ۞ ۞

◆ ١. تذكيرٌ يهزّ القلب

يوم الجمل خرج علي إلى الزبير فذكّره بحديثٍ نبوي: 'أتذكر يوم قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم: أتحبه؟ فقلت: وما يمنعني؟ فقال: أما إنك ستقاتله وأنت له ظالم؟'. فقال الزبير: 'والله لا أقاتلك بعد هذا اليوم'، وانسحب من المعركة.

◆ ٢. غيلةٌ بعد الانسحاب

تبعه عمرو بن جرموز فقتله غيلةً في وادي السباع وهو منصرفٌ لا يقاتل، سنة ست وثلاثين للهجرة، وله نحو أربعٍ وستين سنة ثم جاء بسيفه إلى علي يرجو الحظوة، فغضب علي وقال: 'بشّر قاتل ابن صفية بالنار'. وبكى علي على الزبير وقال: 'سيف الزبير طالما كشف به الكرب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم'.

﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾

سورة الحشر، الآية ١٠



الباب السابع

سعد بن أبي وقاص

أول سهمٍ يُرمى في سبيل الله، وفاتح القادسية



الفصل الأول

النسب والنشأة

۞ ۞ ۞

◆ ١. النسب

هو سعد بن مالك بن أُهيب (ويقال وُهيب) بن عبد مناف بن زهرة، المعروف بسعد بن أبي وقاص، من بني زهرة، وهي قبيلة أم النبي صلى الله عليه وسلم آمنة بنت وهب، فكان يُدعى 'خال رسول الله' لهذه الصلة. وأمه حمنة بنت سفيان بن أمية.

◆ ٢. النشأة

نشأ سعد في مكة فتىً نحيلاً شغوفاً بالرماية، يصنع القسي والسهام بيده، ويتدرب عليها حتى صار من أمهر الرماة. وكان باراً بأمه براً شديداً، وهو ما سيُمتحن امتحاناً عسيراً حين يختار بين رضاها وبين دينه.

الفصل الثاني

قصة الهداية والإسلام

۞ ۞ ۞

◆ ١. ثلث الإسلام

أسلم سعد وهو في السابعة عشرة من عمره، من أوائل مَن أسلم، بعد أن دعاه أبو بكر الصديق، حتى قال عن نفسه: 'لقد رأيتني وأنا ثلث الإسلام'، يقصد أنه كان من أوائل ثلاثة أسلموا، على ما ذُكر.

◆ ٢. امتحان البرّ بالأم

حين علمت أمه بإسلامه أضربت عن الطعام والشراب، وقالت لا أكلّمك أبداً حتى تكفر بدينك، وكانت تُشجَر فمه بالعصا لتُطعمه، فقال لها: يا أمّاه، لو كانت لك مئة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني هذا، فكلي إن شئتِ أو لا تأكلي. ونزلت فيه آية في الصحيح:

﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾

سورة لقمان، الآية ١٥ — نزلت في سعد، رواه مسلم.

الفصل الثالث

مواقف خالدة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم

۞ ۞ ۞

◆ ١. أول سهمٍ في سبيل الله

يُعدّ سعد أول من رمى بسهمٍ في سبيل الله، في سريةٍ مبكرة قبل بدر. وفي أُحد كان النبي صلى الله عليه وسلم يناوله السهام ويقول: 'ارمِ، فداك أبي وأمي'، ولم يجمع النبي صلى الله عليه وسلم أبويه فداءً لأحدٍ غير سعد.

عن النبي صلى الله عليه وسلم:
'ارمِ سعد، فداك أبي وأمي'
رواه البخاري ومسلم

◆ ٢. دعوةٌ مستجابة

دعا له النبي صلى الله عليه وسلم: 'اللهم سدّد رميته وأجب دعوته'، فكان الصحابة يتحرّون رضاه خشية دعوةٍ منه. ولما اشتكاه بعض أهل الكوفة زوراً إلى عمر، دعا عليهم، فأصابتهم دعوته.

◆ ٣. يوم عاده النبي في مرضه

مرض سعد بمكة عام حجة الوداع فعاده النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، لي مال كثير وليس يرثني إلا ابنة، أفأتصدّق بثلثيْ مالي؟ قال لا، قال: فالشطر؟ قال لا، قال: فالثلث؟ قال: 'الثلث، والثلث كثير، إنك أن تذر ورثتك أغنياء خيرٌ من أن تذرهم عالة يتكففون الناس' متفق عليه.

◆ ٤. القادسية والمدائن

اختاره عمر لقيادة مواجهة فارس، فكانت القادسية من أعظم المعارك الفاصلة، وانفتح العراق أمام الفتح الإسلامي ثم دخل المدائن وصلّى في إيوان كسرى، واختطّ مدينة الكوفة وبنى مسجدها.

◆ ٤. الاعتزال في الفتنة

حين نشبت الفتنة بين علي ومعاوية اعتزل سعد القتال، وقال :'لا أقاتل حتى تأتوني بسيفٍ له عينان يفرّق بين المؤمن والكافر'.

الفصل الرابع

روايته للحديث

۞ ۞ ۞

◆ ١. من المكثرين نسبياً

يُذكر أن لسعد نحو مئتين وخمسةٍ وسبعين حديثاً، وكان صاحب ورعٍ في الرواية، يحدّث بما حفظ بلا زيادة، وكان قليل الكلام في الفتنة كثير الذكر.

◆ ٢. دعاءٌ نبوي رواه سعد

عن النبي صلى الله عليه وسلم:

'اللهم إني أعوذ بك من البخل، وأعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك من أن أُرد إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا، وأعوذ بك من عذاب القبر'

رواه البخاري عن سعد بن أبي وقاص

◆ ٣. حديث المؤذن

عن النبي صلى الله عليه وسلم:

'من قال حين يسمع المؤذن: وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، رضيتُ بالله رباً، وبمحمدٍ رسولاً، وبالإسلام ديناً، غُفر له ذنبه'

رواه مسلم عن سعد بن أبي وقاص

الفصل الخامس

وفاته

۞ ۞ ۞

◆ ١. آخر العشرة رحيلاً

عاش سعد بعد الفتنة في قصره بالعقيق قرب المدينة، معتزلاً السياسة، حتى مرض مرضه الأخير، فأوصى أن يُكفّن في جبّةٍ من صوفٍ كان لقي فيها المشركين يوم بدر، وقال: إنما كنت أدّخرها لهذا اليوم.

◆ ٢. الرحيل

توفي رضي الله عنه سنة خمسٍ وخمسين للهجرة على المشهور، وهو في نحو الثمانين، فحُمل على الأعناق إلى المدينة ودُفن بالبقيع، فكان آخر العشرة المبشرين بالجنة وفاةً.

﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾

سورة النور، الآية ٣٧



الباب الثامن

سعيد بن زيد

زوج أخت الفاروق، وصاحب الدعوة المستجابة على الظالم



الفصل الأول

النسب والنشأة

◆ ١. النسب

هو سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفيل بن عبد العزى بن رياح، من بني عدي، ابن عم عمر بن الخطاب، وزوج أخته فاطمة بنت الخطاب. وأبوه زيد بن عمرو من الحنفاء الذين رفضوا عبادة الأصنام قبل البعثة.

◆ ٢. النشأة في بيت التوحيد

نشأ سعيد في بيتٍ كان أبوه فيه يتبرأ من الأوثان ويقول: اللهم لو أني أعلم أحب الوجوه إليك لعبدتك به ولكني لا أعلمه، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم عن زيد: 'يُبعث يوم القيامة أمةً وحده'. فنشأ سعيدٌ وفي قلبه بذرة التوحيد، لم تُلوّثها أصنام قومه.

الفصل الثاني

قصة الهداية والإسلام

۞ ۞ ۞

◆ ١. إسلامٌ سبق إسلام عمر

أسلم سعيد وزوجته فاطمة قديماً، قبل عمر بنحو سنتين، وأخفيا إسلامهما عنه خشية بطشه. وحين خرج عمر يريد قتل النبي صلى الله عليه وسلم ثم عرف بإسلام أخته وختنه، توجه إليهما فضرب سعيداً وضرب أخته، فكانت تلك اللحظة شرارة إسلام عمر هو.

◆ ٢. ثبات في وجه ابن عمه

ولم يتراجع سعيد حين ضربه عمر، بل قال له: افعل ما بدا لك فقد أسلمنا، وهو موقفٌ يكشف ثباتاً نادراً أمام أشد رجال قريش بطشاً.

الفصل الثالث

مواقف خالدة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم

۞ ۞ ۞

◆ ١. من العشرة رغم فوات بدر

غاب سعيد عن بدر لأن النبي صلى الله عليه وسلم أرسله مع طلحة في مهمة استطلاع لخبر قافلة قريش، فلم يعودا إلا بعد انتهاء المعركة، فضرب لهما النبي صلى الله عليه وسلم بسهمهما وأجرهما، وهو درسٌ أن الأجر يُقاس بالنية والطاعة لا بالحضور الشكلي.

◆ ٢. شهود المشاهد

شهد سعيد أُحداً والخندق وسائر المشاهد مع النبي صلى الله عليه وسلم، وشهد فتح دمشق في خلافة أبي بكر وعمر، وكان من فرسانها، وولّاه أبو عبيدة عليها.

◆ ٣. أروى بنت أويس: دعوة المظلوم

في أواخر حياته اتهمته أروى بنت أويس زوراً بأنه اقتطع من أرضها، ورفعت أمرها إلى مروان بن الحكم، فقال سعيد: 'أتراني أخذت من أرضها شيئاً بعد أن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من أخذ شبراً من الأرض بغير حقه طُوّقه يوم القيامة من سبع أرضين ؟'ثم دعا: 'اللهم إن كانت كاذبة فأعمِ بصرها، واجعل قبرها في دارها'.

ويُروى أنها عَمِيت ثم سقطت في بئرٍ في دارها فماتت. ولم تكن دعوة سعيد انتقاماً، بل استغاثة بريءٍ وُجّهت إليه تهمة باطلة فردّ الأمر إلى الله.

الفصل الرابع

روايته للحديث

◆ ١. من المقلّين

يُذكر أن لسعيد بن زيد نحو ثمانيةٍ وأربعين حديثاً، وقد رواها عنه عددٌ من الصحابة والتابعين، منهم ابن عمر وأبو الطفيل، وهو صاحب حديث العشرة المبشرين بالجنة حين ذكرهم بأسمائهم.

◆ ٢. حديث الأرض الذي دافع به عن نفسه

عن النبي صلى الله عليه وسلم:

'من ظلم من الأرض شيئاً طُوّقه من سبع أرضين'

متفق عليه، رواه سعيد بن زيد

◆ ٣. حديث الدفاع عن المال

عن النبي صلى الله عليه وسلم:

'من قُتل دون ماله فهو شهيد، ومن قُتل دون دينه فهو شهيد، ومن قُتل دون دمه فهو شهيد، ومن قُتل دون أهله فهو شهيد'

رواه أبو داود والترمذي وصحّحه

الفصل الخامس

وفاته

۞ ۞ ۞

◆ ١. آخر أيامه

عاش سعيد بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم زمناً طويلاً، فرأى الفتوح والفتن، واعتزل الفتنة كما اعتزلها سعد، وسكن العقيق قرب المدينة.

◆ ٢. الرحيل

توفي رضي الله عنه نحو سنة إحدى وخمسين للهجرة، وله نحو سبعين سنة، فحُمل من العقيق إلى المدينة، وغسّله سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر على ما رُوِي، ودُفن بالبقيع.

﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾

سورة البقرة، الآيتان ١٥٥-١٥٦



الباب التاسع

عبد الرحمن بن عوف

التاجر الذي رفض نصف مال أخيه، وأمين الشورى



الفصل الأول

النسب والنشأة

۞ ۞ ۞

◆ ١. النسب

هو عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن عبد بن الحارث بن زهرة، من بني زهرة، وكان اسمه في الجاهلية عبد عمرو (وقيل عبد الكعبة) فسمّاه النبي صلى الله عليه وسلم عبد الرحمن. وأمه الشفاء بنت عوف.

◆ ٢. النشأة

وُلد بعد عام الفيل بنحو عشر سنين، فكان أصغر من النبي صلى الله عليه وسلم، ونشأ تاجراً يعرف الأسواق لا يترك صفقةً إلا وقد أحكم حسابها، ولم يكن في الجاهلية يشرب الخمر، وكان محبوباً لقومه.

الفصل الثاني

قصة الهداية والإسلام

۞ ۞ ۞

◆ ١. إسلامٌ مبكر

أسلم عبد الرحمن قبل دخول النبي صلى الله عليه وسلم دار الأرقم، على يد أبي بكر، فكان من الثمانية السابقين إلى الإسلام.

◆ ٢. الهجرتان

هاجر الهجرتين: إلى الحبشة ثم إلى المدينة، تاركاً في مكة تجارته وأمواله، فوصل المدينة صفر اليدين بعد أن كان من كبار تجار قريش.

◆ ٣. 'دلّوني على السوق'

حين آخى النبي صلى الله عليه وسلم بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري، عرض سعد نصف ماله وإحدى زوجتيه، فرفض عبد الرحمن، وقال: 'بارك الله لك في أهلك ومالك، دلّوني على السوق'. فما هي إلا أشهر حتى عاد تاجراً موسراً بجهده هو.

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾

سورة الحشر، الآية ٨

الفصل الثالث

مواقف خالدة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم

۞ ۞ ۞

◆ ١. إمامة النبي في تبوك

من أعظم مناقبه أن النبي صلى الله عليه وسلم صلّى خلفه في غزوة تبوك صلاة الفجر ركعةً ثم أتمّ النبي صلى الله عليه وسلم الركعة الأخرى، وقال: 'ما قُبض نبيٌّ حتى يؤمّه رجلٌ من أمته'، وهي منقبةٌ لم تُنل لغيره.

◆ ٢. جهادٌ بالمال والنفس

شهد بدراً وأُحداً وسائر المشاهد، وجُرح يوم أُحد جراحاتٍ كثيرة، وأصابه فيها عرجٌ في رجله. وحين دعا النبي صلى الله عليه وسلم إلى جيش العسرة تصدّق بمئتي أوقية، وقدمت له قافلةٌ من سبعمائة راحلة فتصدق بها كلها.

◆ ٣. خشية الغنى

رغم ثروته الهائلة، كان يخاف أن يكون غناه سبباً لتأخره عن درجة الفقراء الذين سبقوه، فبكى وهو ينظر إلى مائدة طعامٍ فاخرة، وتذكر مصعب بن عمير الذي لم يوجد له كفنٌ كافٍ، وقال: 'فقد خشينا أن تكون حسناتنا عُجّلت لنا'.

﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾

سورة آل عمران، الآية ٩٢

◆ ٤. أمين الشورى

حين حصر عمر الخلافة في ستة نفرٍ ومنهم عبد الرحمن، تنازل عن حقه في الترشح، وطلب أن يختار هو، فقضى ثلاثة أيام يستطلع رأي الأمة حتى استقر الرأي على عثمان، فكان بإمكانه أن يكون الخليفة لكنه آثر دور الحَكَم النزيه.

الفصل الرابع

روايته للحديث

۞ ۞ ۞

◆ ١. من الرواة المقلّين

يُذكر أن لعبد الرحمن بن عوف نحو خمسةٍ وستين حديثاً، وكان قليل الرواية كثير الإنفاق، وقد حدّث عنه كبار الصحابة، ومنهم عمر وعثمان وابن عباس.

◆ ٢. حديث الطاعون

ومن أشهر ما رواه حديثٌ شهدت له حياة الأمة، فقد عرض عمر على الصحابة مسألة دخول بلدٍ وقع فيه الطاعون، فاختلفوا، حتى جاء عبد الرحمن فقال: إن عندي في هذا علماً، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

عن النبي صلى الله عليه وسلم:

'إذا سمعتم به بأرضٍ فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرضٍ وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه'

متفق عليه، رواه عبد الرحمن بن عوف

وهو الحديث الذي قرّره الطب والصحة العامة بعد قرون، فجاء قبل أوانه بأدق ما يمكن.

الفصل الخامس

وفاته

۞ ۞ ۞

◆ ١. وصية آخر العمر

أوصى عبد الرحمن بخمسين ألف دينارٍ في سبيل الله، وأوصى لمن بقي من أهل بدر لكل رجلٍ بأربعمئة دينار، فأخذها عثمان في من أخذ، وقال: إن مال عبد الرحمن حلالٌ صفو.

◆ ٢. الرحيل

توفي رضي الله عنه في المدينة سنة اثنتين وثلاثين للهجرة، وهو في نحو الاثنتين والسبعين، وصلّى عليه عثمان على ما رُوِي، ودُفن بالبقيع. ولما احتُضر بكى وقال: إن مصعب بن عمير خيرٌ مني، وحمزة خيرٌ مني ثم بُسط لنا من الدنيا ما بُسط.

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

سورة التوبة، الآية ٣٤



الباب العاشر

أبو عبيدة بن الجراح

أمين هذه الأمة، وفاتح الشام



الفصل الأول

النسب والنشأة

۞ ۞ ۞

◆ ١. النسب

هو عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال بن أُهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر، من قريش، ويلتقي نسبه بنسب النبي صلى الله عليه وسلم في فهر بن مالك. وأمه أميمة بنت غنم. وغلبت عليه نسبته إلى جدّه الجراح فعُرف بأبي عبيدة بن الجراح.

◆ ٢. النشأة

نشأ أبو عبيدة نحيف الجسم، خفيف اللحم، حسن الهيئة، متواضعاً هادئاً لا يُعرف عنه تكبرٌ ولا خصومة. وكان أبوه مشركاً من وجوه قريش، فنشأ في بيتٍ يتناقض مع ما سيصير إليه.

الفصل الثاني

قصة الهداية والإسلام

۞ ۞ ۞

◆ ١. على يد أبي بكر

أسلم أبو عبيدة مبكراً على يد أبي بكر الصديق، فكان من الستة الذين أسلموا على يديه من العشرة، وهاجر الهجرتين: إلى الحبشة ثم إلى المدينة.

◆ ٢. 'أمين هذه الأمة'

وقد خصّه النبي صلى الله عليه وسلم بلقبٍ استثنائي حين جاء وفد نجران يطلب رجلاً أميناً، فقال: 'لأبعثنّ إليكم رجلاً أميناً حقّ أمين'، فتطاول الصحابة، فقال: 'قم يا أبا عبيدة بن الجراح'.

الفصل الثالث

مواقف خالدة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم

۞ ۞ ۞

◆ ١. قتل أبيه دفاعاً عن الدين

التقى أبو عبيدة بأبيه المشرك في بدر، وكان أبوه يتعمّد ملاقاته، فحاد عنه أبو عبيدة مراراً، فلما ألحّ عليه قاتله فقتله، مقدّماً حق الله على أقرب صلة رحم.

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ﴾

سورة المجادلة، الآية ٢٢ — يُروى أنها نزلت في أبي عبيدة.

◆ ٢. يوم أُحد

في أُحد أُصيب النبي صلى الله عليه وسلم فدخلت حلقتان من المغفر في وجنته، فأقبل أبو بكر وأبو عبيدة، فاستخرج أبو عبيدة إحداهما بفمه، فسقطت ثنيّته ثم الأخرى فسقطت الثنية الثانية، فكان أحسن الناس هتماً.

عن النبي صلى الله عليه وسلم:

'لكل أمةٍ أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح'

متفق عليه

◆ ٣. القيادة وفتوح الشام

حين تولى عمر الخلافة عزل خالد بن الوليد عن قيادة جيوش الشام وولّى أبا عبيدة، فتقبّل خالد ذلك بتسليمٍ نادر، وتتابعت الفتوح: دمشق وحمص وبعلبك وأنطاكية، وعُرف بعدله مع أهل البلاد المفتوحة، حتى إن أهل حمص ردّوا للمسلمين ما أخذوه من جزيةٍ حين اضطروا للانسحاب، وطلبوا بقاءهم. ولما فُتحت القدس تسلّمها عمر بنفسه فجلس معه أبو عبيدة.

الفصل الرابع

روايته للحديث

۞ ۞ ۞

◆ ١. قلّة الرواية وعِظَم الأمانة

أبو عبيدة من أقلّ العشرة روايةً للحديث، فلم يُرو عنه إلا نحو أربعة عشر حديثاً، وشغلته القيادة والجهاد عن التحديث، وكان عظيم الورع في الكلام. وإن كان قليل الرواية فقد كانت حياته نفسها روايةً صامتة لمعنى الأمانة الذي وصفه به النبي صلى الله عليه وسلم.

◆ ٢. أمانة الرواية وأمانة العمل

وعلاقة أبي عبيدة بحديث الطاعون خاصّة: فقد كان عبد الرحمن بن عوف راوي النهي عن القدوم على أرض الوباء، وكان أبو عبيدة هو القائد الذي واجه الوباء بنفسه في عمواس، فلم يفرّ منه، وقال لعمر حين أمره بالخروج لا أفارق جندي. فكانت أمانته في العمل أبلغ من كثرة الرواية.

عن النبي صلى الله عليه وسلم:

'إذا وقع بأرضٍ وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه'

متفق عليه، رواه عبد الرحمن بن عوف

الفصل الخامس

وفاته

۞ ۞ ۞

◆ ١. الثبات وسط الوباء

في أواخر خلافة عمر انتشر طاعون عمواس في الشام، فكتب عمر إلى أبي عبيدة يأمره بالخروج بالمسلمين من أرض الوباء، فأدرك أبو عبيدة مقصده الحقيقي وردّ برسالةٍ يعتذر فيها لا أفارق جندي ولا أرغب بنفسي عنهم.

◆ ٢. خطبته الأخيرة

وقف في الناس خطيباً يُثبّت قلوبهم: 'أيها الناس، إن هذا الطاعون رحمةٌ من ربكم، ودعوة نبيكم صلى الله عليه وسلم، وموت الصالحين قبلكم، وإن أبا عبيدة يسأل الله أن يقسم له منه نصيباً'. فأصابه الطاعون فمات به.

◆ ٣. الرحيل

توفي رضي الله عنه سنة ثمان عشرة للهجرة، وهو في الثامنة والخمسين، ودُفن في الأردن في غور بيسان، ووقف معاذ بن جبل يؤبّنه: أيها الناس، توبوا إلى الله من ذنوبكم توبةً نصوحاً، فما من عبدٍ يلقى الله تائباً من ذنبه إلا كان حقاً على الله أن يغفر له.

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾

سورة النساء، الآية ٧٨

خاتمة الكتاب

العشرة المبشرون بالجنة — عقدٌ كامل

بهذا يكتمل عقد العشرة المبشرين بالجنة: أربعةٌ حملوا الخلافة، وستةٌ آخرون حملوا الدين كلٌّ بطريقته. عشرة رجالٍ، بعشر شخصياتٍ متمايزة، جمعهم دينٌ واحد ومصيرٌ واحد: شهادة النبي صلى الله عليه وسلم لهم بالجنة وهم أحياء يمشون بين الناس.

عن النبي صلى الله عليه وسلم:

"أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة، وسعد في الجنة، وسعيد في الجنة، وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة"

رواه الترمذي وأبو داود، وصحّحه الألباني

وتبقى الحكمة التي افتتحنا بها هذا الكتاب هي خاتمته أيضاً: أن القلوب جميعاً، مهما اختلفت طبائعها وتنوعت مسالكها، تبقى بين يدي القدر.

تمّ بحمد الله — سِيَر العشرة المبشرين بالجنة، رضي الله عنهم أجمعين

المصادر والمراجع

التي استُقيت منها مادة هذا الكتاب

۞ ۞ ۞

◆ ١. كتب الحديث الشريف

صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وسنن أبي داود، وسنن الترمذي، وسنن ابن ماجه — ومنها نصوص الأحاديث المذكورة في فصول 'روايته للحديث' وفي مواضعها من الكتاب، كحديث النية، وحديث الأعرابي، وحديث الطاعون، وحديث 'أوجب طلحة'، وحديث 'أمين هذه الأمة'.

المستدرك على الصحيحين للحاكم، وحلية الأولياء لأبي نعيم — لبعض الروايات المشهورة في فضائل الصحابة، وبعضها أقل ثبوتاً من غيره كما نُبِّه عليه في موضعه.

◆ ٢. كتب التفسير

تفسير الطبري، وتفسير ابن كثير — لبيان أسباب نزول الآيات المذكورة في الكتاب.

◆ ٣. كتب السيرة والتاريخ

السيرة النبوية لابن هشام، وتاريخ الطبري، والبداية والنهاية لابن كثير، والكامل لابن الأثير، والطبقات الكبرى لابن سعد — لتفاصيل النسب والنشأة والغزوات والفتوح والوفيات.

◆ ٤. كتب التراجم والمناقب

الإصابة لابن حجر، وأسد الغابة لابن الأثير، وسير أعلام النبلاء للذهبي — لتراجم العشرة المبشرين ومناقبهم، وللحكم على بعض الروايات سنداً.

تنبيهٌ ختامي: هذا كتابٌ أدبي تربوي لا كتاب حديثٍ متخصص. وأعداد الأحاديث المنسوبة لكل صحابي تقريبيةٌ تختلف باختلاف المصادر، وقد نبّهنا صراحةً على ما وقفنا على ضعفه من الروايات، لكن العهدة في دقائق الأسانيد تبقى على المصادر الأصلية.